غلطة
بقلم
فاطمة عمارة

سطور من حياة

فاطمة عمارة

*تحتضني أمواج الكلمات بين شاطئين، وتختلط فيها الحروف بين سطور الصحافة والأدب، هكذا تمر الأيام بين كتابة مقال وفكرة قصة تراود نفسي لأنهيها، خطوات النجاح تسير جنبًا إلى جنب في مهنتي كصحفية ومساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام، وفي هوايتي كقاصة، والمحُصِّلة إلى الآن مجموعة من التحقيقات والتغطيات الصحفية وما يزيد عن مائتي مقال للرأي تقف في ناحية ويقابلها في الكفة الأخرى مشاركة في أربع مجموعات قصصية لمُبادرة نساء مُبدعات للعمل الأدبي بقصص هي (**ليلة زفاف- عشقت جنية- ورقة طلاق- غلطة**) ومجموعة قصصية خاصة بي تضم عشر قصص قصيرة شاركت في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٩ بعنوان (**بنكهة مختلفة**) من إصدارات دار الشهد للنشر والتوزيع، حدود حلمي تلامس السماء، وشكلها البسيط ألا يجف قلمي ويصمت لساني، كلمة أكتبها تؤثر في قارئها هذا مكسبي وهدفي الوحيد.

غلطة

وصلت لأذنيها همساتهن وغمزاتهن وجرحتها ضحكاتهن المكتومة، خبَّأت وجهها داخل الملف الموضوع أمامها في محاولة فاشلة لتجاهل ما يحدث حولها حتى ألقت إحداهن عبارة بشكل عفوي في ظاهرها مقصودة تمام القصد في باطنها لها دون غيرها، فقدت قدرتها على الاحتمال لتُلقي بقلمها على المكتب وتجري في الممر للوصول إلى دورة المياه تختبئ فيها لتطلق العنان لدموعها التي تحبسها.

سمعت طرقات على الباب ونداء باسمها من زميلتها عفَّت أكبر الموجودين بالمكتب، خرجت لها ووجهها مُلطَّخ بالأسود بعد أن سال كحل عينيها عليه، قابلتها بابتسامة دافئة وفتحت لها ذراعيها لتكمل البكاء في أحضانها وهي تمسد على ظهرها تهدِّئها بكلمات رقيقة طيبة مثلها، أفرغت مخزونها من القهر والدموع لتواجه السؤال المنتظر:

- لِمَ كل هذه الدموع؟

- ألم تسمعي كلماتهم الجارحة، نعم لم أعد صغيرة وكبرت في السن ولكنَّي لم أتعمد أن أفعلها والله...

قاطعت جملتها قائلة: وإن تعمدتِ فعلها ما المشكلة، ألستِ زوجة؟

- نعم بالطبع ولكن ابنى الكبير سيبدأ عامه الأول بالجامعة بعد شهور قليلة، أنا لم أتعمَّد إخفاء الخبر عنهن، فبالفعل لم أكن أعرف قبل أسبوع مضى.

نظرت لها لائمة: كيف هذا وأول علامة تدل عليه أنت فقط من يعرفها هذا بخلاف العلامات الظاهرة؟

- ما حدث أنني بالفعل أجريت اختبار منزلي وكانت النتيجة سلبية، فظننت أنني قد بلغت من العمر تلك المرحلة التي ينقطع فيها كل أمل ونتيجة لأكلي الكثير فما بي من زيادة في الوزن مجرد سمنة، ولولا ألم بطني ما كنت علمت حتى موعد الولادة، تنهَّدت بحرقة وهي تكمل غلطة مجرد حمل غلطة.

- نهرتها مرة أخرى ليست بغلطة إنها نتيجة طبيعية للعلاقة الزوجية، إنهن غيارى منكِ لأنكِ أثبتِ لهن أنكِ أصغرهن جميعًا ومازلتِ قادرة على الإنجاب.

أراحتها كلماتها المطمئنة لتدفعها بعد ذلك لتغسل وجهها وهي تحثَّها على تجاهل كل ما حولها.

جذبت طرفي معطفها في حركة عفوية منها اعتادتها منذ علمت بخبر حملها في محاولة منها لتخفي بطنها البارزة، تهرب بنظراتها من كل الوجوه، اقتنعت بكلام عفَّت ولكن لا يمكنها تطبيقه، لا تقتنع أنها في عمرها الذي قارب الخمسين أن تحمل وتبدأ مشوار التربية من جديد، وحماتها لم تترك لها فرصة إلا وألقت على آذانها كلمات مسمومة عن أنها متعمدة هذا لتظهر بمظهر الشابة الصغيرة وأن كل هدفها أن تربط زوجها بجوارها وتُثقل عليه بالمصاريف فلم تكتفي بثلاث أطفال في أعمار مختلفة بل أتت بمن يسرق لبه، وتستمر هكذا حتى تندفع إلى غرفتها في بكاء شديد لا يوقفه إلا صغيرتها وهي تطيب خاطرها وتُقبِّلها وتحتضنها.

أكثر ما يثير الحزن في نفسها شريكها في الجريمة كما أُطلق عليها، عندما نقلت له الخبر بمجرد أن عرفت وهي تبكي خوفًا ورهبةً، أصابه في البداية وجوم غريب ليندفع بعدها صارخًا يكيل لها الاتهامات أن كل ما حدث هي المسئولة عنه وأن هذه جريمة في حق نفسها قبل أن تكون في حق أسرتهم، وأنَّها تظن نفسها مازالت تلك الفتاة العشرينية لتحمل وتُرضع وتجري خلف طفل صغير، لتبرق عينيه بعد لحظة وهو يقرر أن يُجهض الطفل ليزيد

نحيبها ولا تجد ما تجيبه به ليجذبها دافعًا إيَّاها خارج الغرفة ليفرض قراره بشكل عملي بالتوجه للطبيب فيخرج صوتها محشرجًا "حرام.. حرام" وهو مستمر في طريقه يفتح سيارته الصغيرة يدفعها بداخلها ويلف يجلس خلف مقود القيادة، وهناك أعلن الطبيب أن الجنين وصل لعمر يصعب فيه إجهاضه وأن العملية أخطر على حياتها من استمرار الحمل، ليوجِّه نحوها عقاب جديد " الصمت" لا يتحدث معها إلا لُماما وينام في غرفة ابنهما الكبير، شهر كامل من القطيعة فرضه عليها وهي لا تعرف سببًا لهذا، هي زوجته الرسمية أمام الله ورسوله والناس أجمع، وهذا الجنين ابنه أيضًا، وعندما قرَّر أن يعود لغرفته كان بهدف متعته الشخصية ليس إلا.

لا تعلم كيف مرَّ شهرين منذ علمت بحملها وها هي في شهرها السابع تعيش يوم بيومه، فيوم تكون بكامل صحتها وآخر ترتفع نسبة السكر والضغط وقد حذَّرها الطبيب أنه على هذا المنوال سيضطر إلى ولادة مبكرة للحفاظ على حياتها، تحذيره لم يلق أي صدى لديها فجُل فكرها امتحانات أبنائها والحفاظ على تفوقهم والولادة في الوقت الحالي تسبب في تشتت تركيزهم.

ليس كل ما نتمناه يتحقق، منكبَّة على الأوراق أمامها في يوم عمل عادي وبدون مقدمات تشوَّشت الرؤية في عينيها ولم تعد ترى الكلمات، حاولت أن تقف ليصيبها دوار وتكاد تسقط لولا إمساكها في حرف المكتب، لفت ما حدث لها أنظار من حولها لتصمم إحدهن على ذهابها للمستشفى، شعرت بشيء يجري على ساقها لتدرك أنها تنزف، وشدَّت قبضتها على يد صديقتها جوارها لتنظر لها متسائلة لتهمس "إني أنزف، أشعر أن هذه نهايتي، أرجو منكِ أن تبلغي أولادي أني أحببتهم دومًا ولم أقصد أبدًا أن أبعد عنهم أو أظلمهم..." لتغيب بعدها عن الوعى، رفعت منال رأسها لتُحث السائق على الإسراع، وما إن وصلت أمام مدخل المستشفى جرت طلبًا للنجدة.

خرج الطبيب بعد عدة ساعات وعلامات الإجهاد بادية على وجهه نظر في الوجوه أمامه ليسأل عن الزوج، تقدَّم بهدوء يشوبه توتر ظاهر كأنه اكتشف في تلك الساعات الماضية أهميتها في حياته، تعلَّقت عينيه بشفاه الطبيب وهو يقول "الحمد لله استطعنا إيقاف النزيف في الوقت المناسب ولكننا اضطررنا إلى القيام بعملية قيصرية وعانى الصغير بعض الصعوبات في التنفس وتمَّ وضعه في حضَّانة..."

- قطع حديثه "لا يهم، المهم ميرفت هل هي بخير؟"

- صمت دقيقة كاملة قبل أن يكمل "النزيف الآن توقَّف ولكنَّها لم تعبر مرحلة الخطر فقد فقدت الكثير من دمائها وحاولنا السيطرة على ضغطها إذا مرَّت الليلة عليها بسلام فسيكون كل شيء بخير" تنهَّد قبل أن يكمل "الحمل في سنها به بعض الخطورة"

- ليردِّد بدون وعي " غلطة كانت غلطة"

مرَّت الليلة الطويلة عليه دون نوم، كل ما يجول في خاطره هو ماذا يفعل بدونها، إنه لا يعرف أي شيء عن البيت ونظامه، أولاده ومذاكرتهم ودروسهم، وهذا الصغير، تذكَّره في وسط أفكاره المتلاطمة فقام يبحث عن مكان الحضَّانة، أشارت له الممرضة عليه، صغير الحجم تتصل به عدة أسلاك وأنبوب حول أنفه ويرى حركة قلبه سريعة كأنه يجري في سباق، دمعت عينيه رهبةً أهذا الضعيف من استقوى عليه وهو لم يرى النور بعد، سمع سؤال الممرضة "ما اسمه؟" وجد نفسه ينطق بلا وعي "هادر" استغربت الإسم فكرَّرته عليه "ألا ترين كيف يهدر قلبه؟" لم تعقِّب ولكنها كتبته على الورقة المعلقة بحضانة الصغير وأضافت ليده أسورة جديدة باسمه.

أشرقت شمس يوم جديد، لتتغير فيه حياتهم، أفاقت ميرفت مجهده ضعيفة ولكن مؤشراتها الحيوية سليمة، حكى لها ما حدث وكيف أن رؤيته للصغير هادر غيَّرت فيه الكثير، لم يسمح لها الطبيب بالخروج من غرفتها ورؤيته فهي مازالت في حاجة للعناية، ولكن سمح لأبنائها بالزيارة ليدخلوا على قلبها البهجة خاصة عندما أراها محمد الابن الأكبر لها صور وفيديو التقطه للصغير، بكت وهي تقبل الشاشة.

مرَّ أسبوع على ولادتها، وهادر مازال في الحضَّانة، عادت إلى المنزل وتركته وحيدًا فأمامه شهر على الأقل حتى يمكنه الصمود وحده دون مساعدة الأجهزة، تكفَّل ممدوح في إحضارها يوميًا في الأوقات المسموحة بالزيارة ليطمئنا عليه، حتى سمح لهما الطبيب في يوم بحمله لمدة دقيقة كاملة.

اعتقدت أن كل الأمور أصبحت وردية، وأن الجميع تقبَّل هادر كجزء لا يتجزأ من حياتهم ولكنَّها مجرد أحلام وأمنيات، خرج الصغير من دنيته الصغيرة للدنيا الكبيرة، ليعيش وسط أسرة يراه أفرادها شخص زاد عن الحاجة، غلطة وفُرضت على الجميع، فلا أحد يطيق بكاؤه الطبيعي المرافق لسنه، الوحيدة

التي تقبَّلته صغيرتها وفاء، اعتبرته عروستها الجديدة، لُعبة تلعبها وقت فراغها عندما ترغب فيها، ولكن عندما تريد الأم مساعدتها تتحجج بمشاغلها ودراستها.

مرَّت الأيَّام وكبر الصغير وبدأ يتعلم الكلام، فشاغبه أخيه حتى علَّمه أن اسمه غلطة والتي تحولت بنطقه المنكسر "ألطة" التي أعجبته طالما يضحك الجميع عليها، لم تفهم مدرسته في الحضانة التي تركته فيها أمه معنى الكلمة حتى سألتها ليثير ردَّها استفزازها وهي تحكي لها عن شغب الأخ الكبير، فتحاول أن تتماسك وأن تشرح لها أن هذا يعد تنابز بالألقاب وأنه سيكون له أثر سيء على الصغير ولكن لا حياة لمن تنادي.

كَبر هادر وفهم معنى الإسم الذي أطلقه عليه أخيه الكبير، وأصبح والشغب متلازمان، وخاصةً مع تكرار عبارة "آه ما أنت جيت غلطة ومعرفناش نربيك" زاد من عناده وسوء تصرفاته حتى تم استدعائه أمام ناظر المدرسة، فأخطاؤه مقارنة بسنه الصغير تُعد كوارث سأله عن سبب تلك الأفعال فأجابه ببراءة "أنا غلطة وكل حاجة غلط" فشل الأخصائي الاجتماعي في تدارك الأمر مع والديه كما فشل معه من قبل، لقد اقتنع الصغير أنه من الطبيعي أن يُخطئ فهو الخطأ في حد ذاته.

وكان له نصيب من اسمه ولقبه مجتمعين، فصوته يهدر في أي مكان يتواجد فيه فيعلم الداخل بوجوده قبل أن يخطو خطواته الأولى فيه، وصوت ضحكاته ترج جسمه الضئيل تجعل الجميع يتعجَّب كيف تخرج هذه الأصوات القوية من هذا الجسد الضعيف، الصواب في عينه ما يراه هو فقط صوابًا لا يهم التقاليد أو الدين أو الأعراف، عرف طريق السجائر ولم يتجاوز أعتاب العاشرة، ولم يتأثر أو يهتم عندما ضبطه أبيه يدخَّنها في شرفة غرفته بل وقف بكل ما أوتي من جرأة مصحوبة ببجاحة يلومه فهو من لم يهتم به على الإطلاق يكفيه فخره الأكبر وتخرجه وعمله وزواجه، ومدلَّلته الصغرى التي لا يرفض لها طلب، حتى ابنه الأوسط نجح في حجز مكان في قلبه، أما هو آخر العنقود فهو كم مهمل، عضو زائد عن الحاجة لا يهم كيف سيكون كأنه ليس ابنه ومن صلبه، أخرج في لحظة كل ما حبسه داخله من مشاعر وعيون أبيه تجحظ وكلماته تقف متحجرة على طرف شفته اختبأت أمه خلف الباب تبكي وتكتم صوت فمها بيدها، لقد حذرته من إهماله للصغير وهو يصر إنه لا يفهم، وها هي حصاد أفعاله، عندما فشل في الرد عليه استدار خارجًا ليجدها وراء الباب تناظره بلوم وخلفها يقف شهود فشله أحمد ومنه بين ذاهل ومصدوم

ليطأطئ بعدها رأسه ويتجه إلى غرفته ليحاسب نفسه وحده بعيدًا عن عيونهم.

خرج بعد إعصاره الهادر بلحظات ينظر في الوجوه الثلاث وعلى وجهه ابتسامه ساخرة، اتجه بعدها نحو باب الشقة عازمًا الخروج في هذا الوقت المتأخر أوقفه ندائها باسمه بصوت خنقته الدموع، فتجمد مكانه فهو لا ينكر حبها اللامشروط له، اقتربت خطواتها منه لتمد يدها وتقربه من حضنها وهي تكمل همسها " أرجوك لا تخرج، لا داعي للهرب" إنها تفهمه، لا يعرف سببًا لصوت داخله يحثه أن يطيعها، استرخي جسده في حضنها يتمتع بحنانها ليستسلم لها وهي تسحبه عائدًا إلى غرفته ليستلقيا على سريره ويغفو في راحة بين يديها.

الألم في حياتنا صرخة أن هناك ما يلزم تغييره، وهو فهم الرسالة بأصعب الطرق، كان من الصعب عليه أن يعترف بخطأه بعد هذا العمر ولكن فليكن اعترافه بشكل عملي، عزم أمره وقرَّر محاولة إصلاح الأمر فليقترب رويدًا رويدًا وليستعين بمحمد وأحمد في إرشاده إلى ما يحبه من هم في سن هادر، عليه إنقاذ ما يمكن إنقاذه ففشله وسوء أخلاقه هو أحد المتسببين فيه.

أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي على الإطلاق، استيقظ على صوت الباب يفتح استمر في ادَّعاء النوم وفهم من دقات قلب أمه المسرعة إنها هي الأخرى تدَّعي مثله، شعر بيد تمسح على رأسه ثم يتبعها عدة قبلات صغيرة تبلِّل جبينه ففهم إنها دموع تسقط من عين أبيه، كتم أنفاسه وهو يسمع همسات غير مسموح لأحد بسماعها، اعتذار مكتوم وأسف على ما فات من عمر كان هو الخاسر الأكبر فيه ووعود بتعويضه عنها، لم تستطع أن تبقى ساكنه فمدَّت يدها تربت على كتفه وتهز رأسها بالموافقة، اعتدل واقفًا مُنهي لحظة الاعتراف.

حاولت الانسحاب من جوار هادر دون أن توقظه لتلحق بأبيه، إلا أن نشيجه أعادها لتعيده بين ذراعيها تحاول منحه حنان يحتاجه، ربتت على ظهره وهي تسأله "ولماذا البكاء الآن؟ ألم تشعر بقبلات أبيك على رأسك؟!"

تقطَّعت أنفاسه وهو يجيبها بين نحيب متزايد "لقد خذلته، لم أحترم شيب رأسه، ولا سنون عمره التي تجاوزت الستين، اتخذت الطريق السهل ولم أحارب لأكسب محبته..."

لم تشعر وهي تجاهد لامتصاص كل ما يعترك داخل رأسه الصغير بالذي عاد وسمع كل ما نطق به هادر، ولكن هذه المرة

مدَّ يده ليجتذبه هو داخل صدره، يجاهد ليمنع دموع ندم أن تسقط أمامها وأمام من ظُلم بينهما.

تحشرج صوته بكلمات صادقة "بل أنا من أخطأ في حقك وحق نفسه، لقد ظننت أنه من الأفضل لك أن تتعلق بواحد من أخوتك الكبار بدلًا مني فالقادم من عمري بأي حال لن يكون مساوٍ لما مضى، خفت عليك ألم الفراق وآثرت البعد، اعتقدت أنك ستكتفي بحب أمك وحنان أختك، وسيكون أخوتك قدوة لك وستتعلم منهما كل ما علمته أنا لهما، ولكني أخطأت في حساباتي، فلماذا أحرمك من حب وحنان أب مازال على قيد الحياة؟"

لم يستطع الحديث أكثر من هذا، وأفرغ الثلاث كل ما يعتمل في صدورهم، تعاهدوا أمام الله على التغير، وأن الصراحة والوضوح أساس العلاقة بينهم، وأن البداية في هذه اللحظة، وقف وجذبه معه ثم التفت لشريكة عمره يمد يده لها ليساعدها على الوقوف وكمن يُصدر قرارًا هامًا أعلن أن يستعد الجميع ليُصلوا معًا شكر لله الذي منَّ عليهم بهذه الفرصة للإصلاح ثم عليهم تناول الفطور معًا، ابتسم هادر في سعادة حقيقية وسبقهما ليستعد في حين نظرت له ميرفت وهي تردد "الحمد لله".

لا أحد يعلم ما حدث لتتغير شخصية هادر كل هذا التغير، اجتهد في دراسته وشارك في الأنشطة التنافسية ووافق أخيه على ممارسة رياضة دفاع عن النفس يخرج فيها طاقة الغضب خاصته، واليوم يجلس جميع أفراد عائلته في مدرجات الاستاد في نهائي بطولة الجمهورية تردد أمه آيات القرآن أن يحفظه لها فهي لم تتقبل تلك اللعبة العنيفة رغم تفوقه فيها بينما يجلس أبيه وأُخوته وهتافات التشجيع تخرج منهم مع كل حركة حتى أعلن الحكم انتهاء المباراة لصالحة ليقفز الجميع مهلِّلين بينما هادر يبحث في الوجوه عن عينين فخورتين به حتى وجد أبيه يبكي ويضحك ويصفق له بشدة، وقتها فقط رفع رأسه بفخر وهو يبتسم بانتصار.

تمت بفضل الله

رسالة إلى مجهول

عزيزي المجهول..تحيَّة طيبة..

أمَّا بعد...

الحياة رحلة وجب علينا القيام بها مهما كانت حالة الطريق والظروف المحيطة، تارة تجري بسرعة، وأخرى تسير كالسلحفاة، البعض منا لا يعنيه المسافات المهم أنه استفاد واستمتع بها والبعض يحمل هم الطريق وطوله وما استنفد فيه، أنتمى إلى الفريق الأول الذي قرَّر الاستمتاع بكل مرحلة من مراحل حياته، فللطفولة براءة وللشباب جمال وليأتي بعدها سن الاستقرار والتحول الحقيقي سن تمام استواء البنية العقلية والجسمية وليس بداية الشيخوخة والخمول كما يتعامل البعض.

كخيول السباق التي غطَّت أعينها بغمامة أسير، فلتحقيق النجاح نُحدِّد ما نسعى حثيثًا للوصول إليه ولا نلتفت إلى غير ذلك مهما زادت المغريات، ولا يتعارض هذا أن يرافق طريقنا للهدف استمتاع بالحياة ذاتها فكل ما تحتاجه مجرد تنظيم الوقت وحُسن إدارته.

والحياة في حد ذاتها معجزة، فأعظم معجزة هي كوننا على قيد الحياة نتفاعل ونتشارك فيها بكل حلو أو مر يمر

علينا ونختبره ونتعلم منه ثم يأتي الحب مرافقًا لها، وهو ذاك الشعور الذي يجعل منا إنسان يشعر ويتأثر بما وبمن حوله ووقتها وهذه هي الثروة الحقيقية قلب يحب الغير فمن ينشر الحب يقابله حب مماثل.

والإبداع هو أكبر معجزة رزقنا الله بها، فلقد خلقنا بإمكانيات لا محدودة يجيد البعض استغلالها واستخدامها فيَخلق معجزات جديدة تضاف إلى رصيد الحياة والبعض يفشل ويقف كالعاجز أمام البحر لا يملك شجاعة الخوض بين أمواجه على الرغم من قدرته على السباحة ومعرفته لقانون الطفو، أما أسوء النماذج التي من الممكن أن نقابلها هو من يسعى إلى قتل معجزة غيره لعدم استطاعته ترجمة أحلامه لواقع يحقق بها معجزة خاصة به.

إن الأمر بين يديك لترى أن الحياة رحلة ممتعة وسباق شيِّق ومعجزة رائعة، اختار طريقتك لتحيا، وتأمَّل كل ما حولك أولًا ثم قم بكل ما يلزم لتحقيق أحلامك، ووقتها لن تكون حياتك عادية..

محبّتي الأبدية

المُخلصة

فاطمة عمارة